

الحُبّ ومُصطلحاته في شعر ابن الفارض

الأستاذة

حوماد صليحة

قسم اللغة العربية و آدابها
كلية الآداب و الفنون و اللغات
جامعة جيلالي ليايس
ولاية سيدي بلعباس – الجزائر

الخلاصة

إنَّ لِكُلِّ فَنٍّ مِنَ الفُنُونِ أَوْ عِلْمٍ مِنَ العُلُومِ مُصْطَلِحَاتٍ خَاصَّةٌ بِهِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا أَرْبَابُ ذَلِكَ العِلْمِ، وَمَنْ قَرَأَ كَتَبَ العُلُومِ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ مُصْطَلِحَاتِهَا أَوْ يَطَّلِعَ عَلَى رَمُوزِهَا وَأَشَارَاتِهَا، فَإِنَّهُ يُؤَوَّلُ الكَلَامَ تَأْوِيلَاتٍ شَتَّى مَغَايِرَةً، فَيَتِيهِ وَيَضِلُّ. وَلِلصَّوْفِيَّةِ مُصْطَلِحَاتِهِمُ الَّتِي قَامَتْ بَعْضُ الشَّيْءِ مَقَامَ العِبَارَةِ فِي تَصْوِيرِ مَوَاجِدِهِمْ، فَلَا بَدَّ لِمَنْ يَرِيدُ الفَهْمَ عَنْهُمْ مِنْ مَصَاحِبَتِهِمْ حَتَّى تَتَضَحَّ لَهُ عِبَارَاتِهِمْ وَيَتَعَرَّفَ عَلَى إِشَارَاتِهِمْ وَيَعْتَبِرَ ابْنَ الفَارِضِ شَاعِرَ الحُبِّ الإِلَهِيِّ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ الشَّعْرَاءِ الَّذِينَ اكْتَمَلَتْ فِي شِعْرِهِمْ كُلِّ الطَّبَائِعِ الفَنِيَّةِ الَّتِي تَمَيَّزَ بِهَا الشَّعْرُ الصَّوْفِيُّ فَهُوَ شَاعِرٌ لَازِمٌ أَسْلُوبًا مُمِيزًا يَفِيضُ بِشُعُورِ الوُجْدَانِ وَالرَّمْزِيَّةِ، وَصِدْقِ العَاطِفَةِ وَتَدْفُقِ الإِحْسَاسِ وَهَذَا مَا اسْتَهْوَانِي إِلَى التَّطَرُّقِ لِمَعْجَمِهِ الصَّوْفِيِّ، مُحَاوَلَةً إِبْرَازِ أَجْمَلِ مَا أَبْدَعَ مِنْ دَلَالَاتِ الحُبِّ وَ مُصْطَلِحَاتِهِ وَمَرَاتِبِهِ المَخْتَلِفَةِ.

Love and its Terminology in the Poetry of Ibn Al-Fard

HOU MAD SALIHA

Faculty of Literature , Language and Arts
Department of Arabic Language and Literature
Djilali Liabes University
State of Sidi Bel Abbes
Algeria

ABSTRACT

Each art or science has its own naming conventions are not known only to who employ that science, and who read books without knowing her conventions, or look at the symbols and signals it will convert the speech into various different interpretations also meant scientists, confound and erring. And their conventions that have some mystical thing denominator term in photography must for anyone who wants to understand them from keeping company until his clear words and recognize their signs and considers Ebn al-faridh forcer poet of divine love is among the most important poets who completed in their hair all the natures of art of Sufi poetry, a poet needed a distinctive style brimming with a sense of conscience and symbolism, emotion and flow of feeling and that's what attracted me to address its dictionary and try to highlight the most beautiful created form of love and semantics and different degrees .

توطئة

الحب والعشق والهوى والغرام والود والجوى ، كلها ألفاظ قريبة المعنى غير أنّ ذلك يبقى بمنأى عن أن تعبر عنه الألفاظ، وهذا لا يعني أنّ أحدا من المنويين والفلاسفة والعرفانيين لم يتصدوا لشرح مفهوم الحب، ولكن ما قالوه لم يكن شرحا للحب ذاته، بل كان وصفا لأحواله، وبعبارة أخرى لقد تكلموا عن مسببات الحب ونتائجه دون التكلم عنه.

ولمّا رأى بعض الحكماء الإلهيين أنّ جفاف العلم والعقل وقفت عاجزة وتراجعت مدحورة أمام قلاع الحب، صرّحوا بأن العلم يستطيع الوصول حتى ساحل العشق، فإن بقي على الساحل استطاع الحديث عنه، وإن تقدّم خطوة غرق في لجه، وأنى للفريق أن يتحدث أو يخبر أو يعلم⁽¹⁾. وقد وضحو ذلك أكثر عندما صرّح عين القضاة الهمداني أنّ كلّ ما يشار إليه لا يمكن أن يكون العشق.

وقد زعم بعض الحكماء أنّ العشق "جنون إلهي"⁽²⁾، وهو شدة الشوق إلى الاتحاد، ولهذا فأى حال يكون عليها العاشق يتمنى حالا أخرى أقرب منها⁽³⁾. أمّا الصوفية فقد أكثروا الحديث في العشق والمحبة، فرأوا أنّ المحبة ظاهرة الآنية وخفية الماهية، ولذلك تكلموا عن آنية الحب ولم يتطرقوا إلى ماهيته.

أمّا ابن الفارض، فقد يمكن اعتباره شاعر الحب دون منازع. فهو لم ينظم قصيدة واحدة في موضوع غير موضوع الحب، ولذلك لقبوه "بسلطان المحبين والعشاق"⁽⁴⁾. فديوانه هو ديوان الحب بحق، إذ أنّه في القصائد الثلاث والعشرين التي نظمها لم يترك طورا من أطوار الحب إلا وتطرّق إليه. فالمحب الإلهي يجد فيه ما يشعر به، كما أنّ المحب الإنساني يقدر أن يحصل منه على مبتغاه. لما لا؟، والمجاز قنطرة الحقيقة والحب، حسب رأي ابن الفارض لا يكون إلا إلهيا مهما كان نوعه أو صورة ظهوره.

فلو أردنا وضع قاسم مشترك بين جميع قصائد الديوان، كان الحب هو حلقة الوصل بين جميع شعر ابن الفارض، وغزله الصوفي يعدّ حسب رأي بعض الباحثين: "أرقى وأسمى ما وصل إليه الغزل الصوفي العربي من دقة الوصف ورقة الشعور وخفة الروح"⁽⁵⁾. وقد يكون ابن الفارض هو الشاعر الصوفي العربي الوحيد الذي استطاع أن يسمو بهذا النوع من الشعر إلى مصافي الغزل الصوفي الفارسي الذي يمتاز بالزفة والعذوبة، ولولاه لبقى الغزل الصوفي العربي دون مستوى الغزل الصوفي الفارسي.

أولا: دلالة الحب والعشق والهوى

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ اللغويين قد وضعوا فرقا بين الحب والمحبة والعشق والهوى والجوى والغرام، وجعلوا لكل منها مرتبة معينة، أمّا عند شاعرنا الصوفي فالحال يختلف، أو قلّ إنّه لم يكتثر للمدلولات اللغوية للألفاظ التي تعبر عن حالة الحب بوجوهها المتعددة. فأحيانا يذكر الحب والعشق والهوى معا، وكأنها شيء واحد ولا اختلاف فيما بينها، نحو قوله⁽⁶⁾:

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى فإذا عشقت فبعد ذلك عذّف.

وقوله أيضا في قصيدة أخرى⁽⁷⁾:

هو الحب فاسلم بالحشى ما الهوى سهل فما اختاره مضنى به وله عقل.

ففي البيت الأول لا يفرق بين الهوى والعشق، كما لا يفرق في البيت الثاني بين الحب والهوى. وفي بعض الأحيان نراه يفرق فيما بينهما، مثلاً يجعل الهوى في مرتبة دون مرتبة الحب، كما أنّ يأتي في مرتبة أعلى من العشق، وذلك في قوله من التائية الكبرى⁽⁸⁾:

فتى الحب، ها قد بنت عنه بحكم من يراه حجاباً، فالهوى دون رتبتي.
وجاوزت حدّ العشق، فالحب كالقلي وعن شاو معراج اتحادي رحلتي.

هذا من ناحية التساوي والفرق بين مراتب الحب المختلفة، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ الحب المتمثل عنده بالخمرة، كما سيأتي تفصيل ذلك لاحقاً يأتي في حدّ ذاته في رتبة دون رتبة المشاهدة لقوله⁽⁹⁾:

وبالحق استغنيت عن قحدي ومن شمائلها لا من شمولي نشوتي.

وهذا لا يعني أنّه لو أردنا أن نضع أحوال ابن الفارض العرفانية في درجات لاحتلت المشاهدة الدرجة العليا، ولكان الحب سبيلاً للوصول إلى تلك الغاية القصوى، هذا لا يعني أنّ الحب ليس غاية في تصوف شاعرنا، بل إنّه لا يبغي أن يبقى في ذلك المقام إذ يريد أن يتعداه إلى مقام المشاهدة الذي يرى فيه المحبوب متجلياً له في كلّ صورة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ورود مصطلح "العشق" في شعر ابن الفارض كان قليلاً جداً بالنسبة لمصطلح "الحب" و"الهوى" و"الغرام"، ففي جميع الديوان لا ترد كلمة العشق أكثر من ست مرات، بينما ترد كلمة "الحب" ستاً وسبعين مرة و"الهوى" ثلاثين مرة، و"الغرام" ثلاثين مرة، فهل كان ذلك مصادفة أم كان له سبب هام عند الشاعر؟

لو عدنا إلى تعامل العلماء والفقهاء منذ القدم مع العشق والحبّ لصارت المسألة أكثر وضوحاً، فيما أنّ كلمة العشق لم ترد في القرآن الكريم ولم يوصف الله تعالى بها، عدّها العلماء غير لائقة بالمقامات الإلهية، ويبدو أنّ ابن الفارض كان أخذاً بهذا الرأي إلى حدّ ما، لاسيما وأنّه قد نشأ في بيئة دينية ملتزمة، فقلل من استعمال "العشق" إلى حدّ بعيد واستبدل بذلك إكثار من استعمال "الحب" و"الهوى" و"الغرام". وهنا يختلف شاعرنا الصوّفيّ عن شعراء الصوّف الفرّس الذين لم يستعملوا في التعبير عن حبّهم سوى كلمة (العشق) بصورة عامة⁽¹⁰⁾، وقد تكون هذه المسألة بالذات من الفوارق الرئيسية بين لغة التصوف عند الفرّس وتلك التي عند العرب.

وقد وضّح هذه النظرة الدينية لكلمة "العشق" الشيخ أحمد الإحسائي⁽¹¹⁾ عندما قال في كتاب (شرح الزيارة): "...إنّه لم يرد من طرقنا استعمال العشق في جانب الحق، وإنّما ورد من طرق أهل التصوف وهو عندنا باطل لا تجوز نسبته إلى الله تعالى..."⁽¹²⁾. وقال أيضاً: "...لا معنى للعشق إلا الجنون الشيطاني لا الجنون الإلهي كما زعموا، فإنّ الله تعالى لا ينسب إليه الجنون وإنّما ينسب إليه العقل، وهو هنا الحب وكمال الطاعة"⁽¹³⁾ فهو بالتالي من رافضي نسبة كلمة العشق إلى الله رفضاً قطعياً.

ومن الأمور اللافتة للنظر في كلام ابن الفارض عن الحب قوله⁽¹⁴⁾:

وملك معالي العشق ملكي، وجندي ال معاني، وكلّ العاشقين رعتي.

فكما أنّ الملك مرتبط بالجند ولا يكون قوامه إلا به، كذلك ربط ابن الفارض هذا البيت بين العشق والمعاني، وجعل "المعاني" قواماً له، فما هو المقصود من المعاني؟ يقول الفرغاني إنّ المقصود هو: "معاني حقائق الشريعة والطريقة المحمدية"⁽¹⁵⁾. فلو كان هذا صحيحاً، فكيف يمكن جعل الحقيقة بمثابة جند في مملكة العشق، والعشق وسيلة للوصول إلى الحقيقة؟ قد يكون هنالك غير ما قاله الفرغاني تفسيران آخران للمعاني، الأول يمكن استخلاصه من مصطلح "معاني الإشارة" الوارد في شعر ابن الفارض، فيكون المقصود من المعاني الأمور المرتبطة بالإشارة، وهذا يعني أنها هي المسائل الخفية المستورة. وفي قرينة ربط المعاني بالجند في البيت المشار إليه، يمكن الاستنتاج أنّ المعاني بمثابة الجنود التي تحفظ حصن أسرار العشق من دخول الأغيار إليه، فتبقى تلك الأسرار محفوظة من مسّ العوام الذين لا يرقون لمعرفة، أما التفسير الآخر فقد يكون في قول الشيخ الإحساني في تعريف مقام المعاني بأنه: "باطن الباطن وهو سرّ السر وسر على سر وحق الحق"⁽¹⁶⁾ وبالنتيجة تكون المعاني إشارة إلى السريّة و الباطنية والحاصل أن التفسيرين المشار إليهما يلتقيان في أنّ المعاني هي الأسرار، والسر يحفظ نفسه من الشيوخ كما تحفظ الجنود البلاد، فالعشق هو الحريم والملك الذي يحفظ بجنود المعاني.

ثانياً: الحب رمز الخمرة

ولا يمكن فصل فكرة الحب عن رمز الخمرة في شعر ابن الفارض، بل إنّ ما ورد من عبارات وأبيات تشير إلى الخمرة لم تكن سوى عبارات تشير مجازياً إلى الحب. لذلك نراه يبدأ تائيته الكبرى بعبارته "حمياً الحب"، وكأنّه يريد أن يربط منذ البداية بين الخمرة والحب، بل إنّّه يريد أن يجعلها أمراً واحداً في مصطلح واحد يتركب من الاثنين، ولما شاء ابن الفارض أن يبدأ تائيته الكبرى التي تمثّل سلوكه الغيبي بالحب ويختتمها بالحب، جعل ذكر المدامة مبدأ القصيدة المشار إليها كما جعلها ختامها، فالتائية الكبرى تبدأ بقوله⁽¹⁷⁾:

سقتني حمياً الحب راحة مقلتي وكأسي محياً من عن الحسن جلت.

وتختتم بقوله⁽¹⁸⁾:

ومن فضل ما أسارت شرب معاصري ومن كل قلبي، فالفضائل فضلتني.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ القصيدة الخمرية، وهي من أهم قصائد الديوان العرفانية، لا تتكلم عن شيء سوى الخمرة بأوصافها وأفعالها وتأثيراتها، ولا ترد فيها أيّ لفظة للحب أو العشق أو الهوى وما شابه ذلك من الألفاظ التي لم تفتقد لها قصيدة سوى هذه القصيدة الخمرية. غير أنّ الحقيقة هي أنّ ابن الفارض لم يتكلم في القصيدة المذكورة عن أيّ شيء سوى الحب، ولكن من خلال رمز الخمرة.

ثالثاً: الفلسفة والهندسة والتحو رموز للحب

وابن الفارض يستعمل أحيانا المصطلحات الفلسفية والتحوية والهندسية للتعبير عن الحب، فهو يستعمل مصطلحي "المستحيل" و "الواجب" الفلسفيين لوصف جسمه وقلبه في الحب، فيقول⁽¹⁹⁾:

فجسمي وقلبي مستحيل وواجب وخدي مندوب لجائز عبرتي..

كما يستفيد من التحو للغرض نفسه، فيقول⁽²⁰⁾:

نصبا أكسبني الشوق كما تكسب الأفعال نصب لام كي.

وإذا أراد التعبير عن الوحدة ورفع الاثنية فيما بينه وبين محبوبه، فالتحو أيضا وسيلة لهذا الغرض، لذا نراه يقول⁽²¹⁾ :

فقد رفعت تاء المخاطب بيننا، وفي رفعها، عن فرقة الفرق، رفعتي.

كما أنه يرى المصطلحات الهندسية وسيلة لتكوين لغته الصوفية، فيقول⁽²²⁾ :

فلا تعد خطى المستقيم، فإن الزوايا خبايا، فانتبه خير فرصة.

فهذه الطريقة في تكوين اللغة الشعرية في الغزل لم تكن جديدة عند ابن الفارض، فقد استعمل غيره من شعراء الغزل مثل هذه الألفاظ الفلسفية والهندسية وخاصة التحوية في شعرهم، غير أن شعراء التصوف الذين نظموا بهذه الطريقة كانوا قلائل ومنهم ابن الفارض.

رابعاً: التحول والسقم والتلف

ومن جملة الأمور الأخرى اللافتة للنظر في ديوان ابن الفارض تركيزه المستمر على ذكر التحول والسقم والتلف الذي أصابه في سبيل الحب، وهو يصل في ذلك إلى حد المبالغة، فيقول مثلاً في الدالية مركزاً على أوضاعه الجسمانية البائسة نتيجة الحب والجوى⁽²³⁾ :

حران محني الضلوع على أسى غلب الأسي، فاستؤخذ استنخاذا.

دنف، لسبيب حشى، سلايب حشاشة شهد السهاد بشفحه ممشاذا.

سسقم ألسم به، فألم إذا رأى بالجسم من أغذاده، أغذاذا.

وهو يربط الهوى بالبلاء في قوله⁽²⁴⁾ :

رح معافى، واغتم نصحي وإن شئت أن تهوى، فللبلى وهى

والسقم هو وسيلة لظهور المحب بعد ما يكون خافياً، لذا نراه يقول⁽²⁵⁾ :

فأظهرني سقم به، كنت خافياً له والهوى يأتي بكل غريية.

حتى إن التلف في سبيل الحب يؤدي إلى ائتلافه بمحبوبه، وفي هذا يقول⁽²⁶⁾ :

وتلافي إن كان فيه ائتلافي بك عجل به، جعلت فداكا.

فالتبعية التي يمكن استخلاصها من هذه الأبيات القليلة هي أن الهوى ملازم للبلاء، والسقم يؤدي إلى ظهور العاشق بعد ما يكون خافياً، علاوة على أن التلف في سبيل الحب وسيلة لائتلاف المحب بالمحبيب، أليست أحوال البلاء والسقم والنحول هذه، والتي يركز عليها ابن الفارض، تنطبق تمام على أحوال (الفناء) عند الصوفية؟ أليس فناء العبد عن نفسه وبقاؤه بربه يؤدي إلى الوصول والاتحاد والائتلاف بالحق؟ أليس الفناء هو المقام الذي يخفي فيه العاشق عن نفسه ويظهر بمعشوقه الذي هو الظاهر الأوحى في وجوده، لأنه متجلي في كل مظهره؟ أليس الفناء والحب متلازمين؟

لذا يمكن القول إنّ كلام ابن الفارض عن أحواله السيئة في الحب من قبيل السقم والبلوى والنحول والتلف إنّما هو تعبير شاعري لفكرة عرفانية صوفية هي الفناء. وهنا تظهر براعة ابن الفارض في وضع العقائد والأفكار العرفانية والفلسفية في قالب شعري غزلي لطيف، وقد يكون هذا من جملة الأسباب التي أدت إلى التباس أمر شعره على الناس فيما إذا كان إنسانيا أو إلهيا.

الهوامش

- (1): ينظر: همداني عين القضاة عبد الله، تمهيدات، تح. عفيف عسيران، كتابخانه منوچهری، طهران، 1962، ص 97.
- (2): ينظر: ابن عبد الله أحمد، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، ج 3، دار صادر، بيروت، 1957، ص 270.
- (3): ينظر: المصدر نفسه، ص 272.
- (4): ينظر: الحنبلي بن محيي الدين، شذرات الذهب، ج 7، مكتبة القدس، القاهرة، دط، ص 149.
- (5): حلمي مصطفى، ابن الفارض والحب الإلهي، دار المعارف، مصر، ط 2، 1971، ص 139.
- (6): ابن الفارض عمر، الديوان، دار صادر، بيروت، دط، 1959، ص 153.
- (7): المصدر نفسه، ص 134.
- (8): المصدر نفسه، ص 74.
- (9): المصدر نفسه، ص 46.
- (10): ينظر: بهمردي وحيد، اللغة الصوفية ومصطلحاتها في شعر ابن الفارض، رسالة ماجستير في الأدب العربي، بيروت، لبنان، تموز 1986، ص 53.
- (11): هو مؤسس فرقة دينية شيعية في العراق وفارس، وذلك في ق 13هـ، وفي مذهبه الكثير من الفكر الإشراقي.
- (12): ينظر: الاحسائي أحمد بن زيد الدين، شرح الزيارة الجامعة، دار المفيد، بيروت، ط 1، 1990، ص 69.
- (13): ينظر: المصدر نفسه، ص 411.
- (14): ابن الفارض، ديوانه، ص 74.
- (15): الفرغاني، منتهى المدارك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2007، ص 304.
- (16): ينظر: الفرغاني، منتهى المدارك، ص 304.
- (17): ابن الفارض، ديوانه، ص 46.
- (18): المصدر نفسه، ص 116.
- (19): المصدر نفسه، ص 37.
- (20): المصدر نفسه، ص 09.
- (21): المصدر نفسه، ص 67.
- (22): المصدر نفسه، ص 93.
- (23): المصدر نفسه، ص 31.
- (24): المصدر نفسه، ص 18.
- (25): المصدر انفسه، ص 49.
- (26): المصدر نفسه، ص 156.